

إقليم متيجة خلال العصر الوسيط
دراسة جوانب من تاريخه الحضاري من خلال الكتابات
الجغرافية
Mitidja region in the middle ages
Study of aspects of its civilized history
through geographical writings

صص 269-285

اسم ولقب المؤلف المرسل: خديجة بورملة

الدرجة والعنوان المهني: أستاذة محاضرة ب - كلية العلوم الانسانية والاجتماعية - جامعة معسكر (الجزائر).

البريد الإلكتروني: khadidja.bouramla@univ-mascara.dz

تاريخ استقبال المقال: 2021/03/15 تاريخ المراجعة: 2021/04/04 تاريخ القبول: 2021/05/23

الملخص باللغة العربية: يهدف هذا المقال إلى التعريف بإقليم متيجة وتاريخه الحضاري خلال العصر الوسيط، وذلك بالاعتماد على الكتابات الجغرافية التي نجد بها على خلاف بقية المصادر التاريخية، جملة من النصوص التي تُمكن -على الرغم من محدوديتها- من وضع تصور عام للتطور التاريخي الذي عرفه هذا الإقليم إبان الفترة الوسيطة، حيث نجد بالمصادر الجغرافية أوصافا لها ارتباطا بالجوانب الطبيعية والجغرافية والعمرانية، كما نجد بها نصوصا عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية لإقليم متيجة.

وهنا يجب الإشارة إلى أهمية هذا الإقليم من الناحية الاقتصادية على وجه التحديد، باعتبار أن سهل متيجة والمدن التابعة له قد شكلت بالنسبة لبلاد المغرب الأوسط مصدرا هاما من مصادر الثروة وخصوصا الثروات والمنتجات الفلاحية، التي اشتهر بها هذا الإقليم، حيث لعب سهل متيجة دورا هاما في النشاط الفلاحي لهذه البلاد، ذلك أن موقعه الجغرافي وتنوعه الطبيعي جعلاه من منطقة فلاحية بامتياز، بسبب وفرة مصادر المياه وتنوعها مما يؤثر إيجابا على خصوبة التربة وتنوع المحاصيل الزراعية وجودتها، من جهة ثانية فإن موقع الإقليم الوسط، جعله يقع على أهم المسالك ببلاد المغرب الأوسط، ويربط الكثير من مدنه ببعضها البعض، خصوصا بالنسبة للطرق والمسالك التي تربط

الشرق بالغرب والعكس، إضافة إلى اتصاله بمدن على جانب كبير من الأهمية، نذكر منها على وجه الخصوص كل من: جزائر بني مزغني، مليانة والمدينة، مما ساهم في تطوره التجاري، وأكسبه أهمية تجارية بالنسبة لتجارة المغرب الأوسط الداخلية وحتى الخارجية. الكلمات المفتاحية: متيجة؛ المغرب الأوسط؛ الكتابات الجغرافية؛ فحص؛ الإقليم؛ المدن؛ جزائر بني مزغني؛ خصب؛ المياه؛ الأنهار؛ المسالك.

ABSTRACT : This article aims to present the region of Mitidja and its civilized history in medieval times, based on geographical writings in which we find, unlike other historical sources, a set of texts that can - despite their limitations - to give a general conception of the historical development that this region experienced during medieval times, we find in the geographical sources descriptions related to natural, geographical and urban aspects, and we also find texts on economic conditions , social and even cultural in the Mitidja Region.

Here, we must indicate the importance of this region; specifically from an economic point of view, considering that the Mitidja plain and its affiliated towns have constituted for the central Maghreb an important source of wealth, in particular wealth and agricultural products, for which this region is famous, where the plain of Mitidja and its cities have played an important role in the agricultural activity of this country, because its geographical location and its natural diversity have made it an excellent agricultural region, due to the abundance and diversity of water sources, which positively affects soil fertility and the diversity and quality of agricultural crops.

On the other hand, the central geographical location of the region made it located on the most important roads of the central Maghreb, connecting several of its towns to each other, especially with regard to the roads and paths that connect the east to the west. and the opposite, in addition to its link with cities of great importance, of which we mention in particular: Djazair Beni Mizghana, Miliana and Medea, which have contributed to its commercial development and have acquired commercial importance for the internal trade of the central Maghreb and even external.

Keywords: Mitidja; central Maghreb; geographical writings; region; cities; Djazair Beni Mizghana; fertile; waters; rivers; tracks.

المقدمة: تنفرد الكتابات الجغرافية بالعديد من النصوص التاريخية التي نستطيع من خلالها التأريخ لبلاد المغرب الإسلامي عموماً، وبلاد المغرب الأوسط على وجه الخصوص، إذ نجد بهذه المصادر ما يعين الباحث على تقصي التطور التاريخي الذي عرفته مدن وأقاليم هذه البلاد خلال العصر الوسيط، وذلك بواسطة جمع وتحليل المعطيات التاريخية التي

وردت بهذه الكتابات على اختلاف أنواعها، من كتب للمسالك والممالك، كتب الجغرافيا العامة، المعاجم الجغرافية، حيث قدمت هذه المصادر أوصافا متعددة لمدن وأقاليم المغرب الأوسط، كل على حسب الترتيب الخاص به.

وموضوع "إقليم متيجة خلال العصر الوسيط: دراسة جوانب من تاريخه الحضاري من خلال الكتابات الجغرافية" يعد محاولة للتعريف بهذا الإقليم وأهم المدن التابعة له، خصوصا وأن الدراسات حوله لا تعد كافية بسبب قلة المعلومات وشح المادة المصدية، هذا إضافة إلى إهمال المصادر الإخبارية الحديث عن هذا الإقليم، باستثناء كتاب ابن خلدون "العبر" الذي نجد به نصوصا لها ارتباط مباشر بساكنة متيجة وتعداد للقبائل البربرية والعربية المسيطرة على المنطقة، وبالتالي يهدف هذا المقال إلى جمع وتصنيف النصوص الجغرافية التي تؤرخ لإقليم متيجة، وتتبع التطورات التي مر بها، ومدنه الرئيسية، وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية، وذلك من خلال استخدام المنهج الوصفي المناسب لمثل هذه المواضيع، ارتباطا بالمعطيات الجغرافية التي تعتبر في معظمها نصوصا وصفية.

يطرح مثل هذا الموضوع العديد من التساؤلات عن الأوصاف التي وضعتها كتب الجغرافيا لإقليم متيجة ؟ وما هي الجوانب التي مستها هذه المصادر بالدراسة من حياة هذه البلاد ؟ أو بصيغة أخرى: ما هو حظ إقليم متيجة في التأليف الجغرافي ؟ وإلى أي حد يمكن لهذه المصادر أن تساعدنا في رسم صورة للحياة العامة بهذا الإقليم ؟

وبالعودة إلى الكتابات الجغرافية وتفحصها بشكل دقيق، نجد بهذه المصادر العديد من الإشارات والمعطيات التاريخية التي تعرف بإقليم متيجة والمدن التابعة له، حيث نجد أوصافا له حتى في كتب الجغرافيا المبكرة من أمثال كتابات اليعقوبي (المتوفى سنة 284 هـ/ 897 م)، لتستمر هذه الأوصاف إلى منتصف القرن العاشر الهجري/ق 16 م مع الرحالة والجغرافي الحسن الوزان (المتوفى سنة 959 هـ/ 1551 م)، غير أن المادة الخبرية تتفاوت من مصدر لآخر، وهذا راجع لأسباب متعددة.

1- المجال الطبيعي والجغرافي:

1-1- التسمية: اتفقت جميع المصادر الجغرافية على تسمية إقليم متيجة خلال العصر الوسيط بـ "البلد" أو "الفحص"¹ أو "السهل"، فالمصدر الذي ذكر كلمة البلد أراد به مجموع المدن التي تنتهي إلى هذا الإقليم، حيث غالبا ما ترد عبارة "بلد فيه عدة مدن

و"حصون" أو عبارة "بلد ذو عمائر متصلة"، ولعل الجغرافيين كانوا يقصدون به الإقليم في حد ذاته، أي مجموع المدن التابعة له، أما الفحص فالحصد منه، مجموع البوادي والسهول المتصلة به.

ومن أمثلة ذلك ما ورد عند اليعقوبي في شأن تسمية الإقليم، وذلك في قوله: «... ثم يصير إلى بلد يقال له متيجة ... وهو بلد واسع فيه عدة مدن وحصون»²، فهذا النص يشير بوضوح إلى التسمية من جهة، وإلى قدم هذا المصطلح من جهة ثانية، حيث يعود إلى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري باعتبار اليعقوبي أقدم مصدر أشار إلى تسمية متيجة، وإلى أن هذا الإقليم كان منذ تلك الفترة المبكرة إقليما واسعا يضم العديد من المدن والعمائر.

أما بالنسبة لكلمة فحص - والتي تعني الأرض المستوية أو المنبسطة - فقد وردت في العديد من المصادر الجغرافية محل الدراسة، وعنى بها أصحابها سهل متيجة الغني بأراضيها الزراعية وبساتينه ومروجه الخضراء، حيث غالبا ما نجد عبارة "فحص كثير الخصب" بهذه الكتابات، ومن أمثلة ذلك وصف صاحب الاستبصار لإقليم متيجة بعبارة: «... فحص كبير يسمى فحص متيجة»³، ووصف الوزان له بالسهل⁴ حيث يضعه ضمن السهول المحيطة بمدينة الجزائر.

من جهة ثانية فإن كتب المسالك والممالك، ويتصدرها كتابي ابن حوقل، "صورة الأرض"، والبكري، "المسالك والممالك" يوردان مدن إقليم متيجة خلال وصف المدن التي جاءت على حافة الطرق والمسالك الواصلة بين مدن إقليم المغرب الأوسط، أو الطرق الرابطة بين المغرب الأوسط وغيره من أقاليم المغرب الإسلامي، وذلك من الشرق إلى الغرب أو العكس، دون أن ترد لديهم تسمية الإقليم.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن البكري ينفرد بنص يوضح من خلاله بأن متيجة هي مدينة يقال لها قزرونة (البليدة حاليا)، فيقول عند تعدادها للمدن الواقعة على الطريق من مدينة أشير⁵ إلى مدينة جزائر بني مزغنى: «من أشير إلى المدية ... ومنها إلى قزرونة: وهي مدينة ... يقال لها متيجة»⁶.

1-2- الموقع والمساحة: غالبا ما تربط كتب الجغرافيا العربية موقع إقليم متيجة بمدينة جزائر بني مزغنى، حيث اتفقت جميع الكتابات الجغرافية على أن هذا الإقليم

يقع بالقرب من مدينة الجزائر أو يتصل بها، حيث يقول المقدسي: «جزيرة بني زغناية على ساحل البحر مسورة يعبر منها إلى الأندلس ولهم عيون، ومتيجة في مرج⁷ لهم ماء جار...»⁸، أما صاحب كتاب الاستبصار فيصف هذا الإقليم عند تعريفه لمدينة الجزائر بني مزغناي فيقول: «مدينة أزلية على ضفة البحر، والبحر يضرب في سورها ويتصل بجزائر بني مزغناي فحس كبير يسمى فحس متيجة ...»⁹، وبدوره يذكر الحميري متيجة عند تعريفه لمدينة الجزائر فيقول: «من أشير إلى جزائر بني مزغنا، وبين مدينة شرشال والجزائر سبعون ميلا، والجزائر مدينة جليلة قديمة البناء ... ومتيجة قريبة منها ...»¹⁰.

ويستمر هذا الارتباط في كتابات الجغرافيين إلى الجغرافي والرحالة الحسن بن محمد الوزان الذي يرد لديه ذكر هذا الإقليم عند تعريف مدينة الجزائر قائلا: «مدينة قديمة من بناء قبيلة إفريقية تدعى مزغنة ... وهي كبيرة جدا ... يحيط بالجزائر عدد من البساتين والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه، ويمر قرب المدينة من الجهة الشرقية نهر نصبت عليه طاحونات، يزود السكان بالماء للشرب ولأغراض أخرى، في الضواحي سهول جميلة جدا، لا سيما سهل متيجة ...»¹¹.

من جهة ثانية سنجد أن بعض المصادر الجغرافية ستوضح لنا موقع إقليم متيجة، بالنسبة إلى تبعيته لأفريقية، حيث يضع المقدسي متيجة ضمن المدن التابعة لبلاد إفريقية فيقول: «وأما إفريقية فقصبها القيروان ومن مدنها صبرة، أسفاقس، المهديّة، سوسة، ... مرسى الخرز، بونة، ... قفصة، قسطلية، ... جزيرة أبي شريك، باغاي، ... المسيلة، أشير، سوق حمزة، جزيرة بني زغناية، متيجة، تنس، سوق إبراهيم، الغزة، يلل ...»¹²، كما يصفها ياقوت الحموي على أنها بلد في أواخر إفريقية¹³.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن تحديد موقع متيجة سواء أكان تابعا لأفريقية أم المغرب الأوسط يعد أمرا في غاية الصعوبة، وهذا راجع إلى أن التحديد الجغرافي الذي وضعه الجغرافيون العرب والمسلمون لبلاد المغرب الأوسط في حد ذاته لم يكن واضحا، وما يمكن استنتاجه من خلال هذه الكتابات أن هذا الإقليم كان تابعا لبلاد المغرب ويقع ضمن حدودها، والتي تمتد من الديار المصرية شرقا إلى البحر المحيط غربا، ومن البحر المتوسط شمالا إلى الصحراء جنوبا، وهذه الحدود هي التي أخذت تسمية إفريقية أو المغرب في الكتابات الجغرافية العربية، خلال القرون الهجرية الأولى.

ومنذ القرن السادس الهجري / ق 12 م أخذت تظهر لهذه البلاد أقسام ثلاثة هي: إفريقية، المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وما يهمننا من هذه الأقسام هو القسم الثاني، هذا الأخير وحسب ما ورد من تحديد جغرافي لدى الجغرافيين، نستنتج أن حدوده الشمالية تتمثل في البحر المتوسط والجنوبية في الصحراء الفاصلة بينه وبين بلاد السودان، أما الحدود الشرقية والغربية لم تكن مضبوطة، والأصح أنه لا يمكن ضبطها، وذلك راجع إلى أنها كانت تمتد أو تنحصر حسب الظروف والأحوال السياسية التي كانت تعيشها المنطقة، حيث أن الدول القائمة بكل من إفريقية والمغرب الأقصى هي التي كانت تتحكم في هذه الحدود، فإذا ما ضمت إليها مناطق ومدن من المغرب الأوسط انحصرت الرقعة الجغرافية له، وإذا ما تركتها مستقلة توسعت حدود هذا الإقليم.

والحقيقة أن كتب الجغرافيا خلال العصر الوسيط لم تتعرض إلى دراسة إقليم متيجة كإقليم مستقل بذاته، بل درسته في إطار الوصف الشامل لبلاد المغرب الإسلامي، خصوصا عند تعداد الطرق الواصلة بين المدن المشهورة لهذه البلاد، دون تحديد دقيق لموقعه الجغرافي، وهذا راجع إلى أن الحدود في تلك الفترة كانت متداخلة فيما بينها، وتمتد أو تنحصر حسب القوة السياسية للدول القائمة بها، غير أنه يمكننا التوصل إلى نتيجة أخرى، وذلك بالاعتماد على الكيانات السياسية التي قامت بالمنطقة، وكان الإقليم تابعا لها -وهو ما سنتحدث عنه لاحقا-، وبالتالي يبدو أن إقليم متيجة حسب الكتابات الجغرافية، كان يقع في أواخر بلاد إفريقية وضمن حدود بلاد المغرب الأوسط.

أما عن مساحة هذا الإقليم فيقول صاحب كتاب الاستبصار: «وهو في مرحلتين في مثلها، قد أهدقت به جبال مثل الإكليل ...»¹⁴، ويحدده الوزن بدقة فيقول: «... يبلغ طوله حوالي خمسة وأربعين ميلا وعرضه ستة وثلاثين ميلا ...»¹⁵.

2- الوضع السياسي: تورد كتب الجغرافيا بعض التفاصيل عن الإمارات أو الدول التي كان إقليم متيجة تابعا لها خلال العصر الوسيط، ومن أوائل الجغرافيين الذين أوردوا مثل هذه المعلومات، اليعقوبي الذي أشار بوضوح إلى أن إقليم متيجة كان تابعا أو يشكل إحدى الإمارات العلوية التي تأسست بالمغرب الأوسط قبل دخول الفاطميين إليه، وفي هذا الصدد يقول: «وإذا خرج الخارج من عمل الزاب مغربا صار إلى قوم يقال لهم بنو برزال وهم فخذ

من بني دمر من زناتة ... ومن هذا الموضع البلد الذي تغلب عليه الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأول المدن في يده مدينة يقال لها هاز ... ثم إلى قوم يقال لهم بنو دمر من زناتة في بلد واسع، عليهم رئيس منهم يقال له مصادف بن جرتيل في بلد زرع ومواش بينه وبين هاز مرحلة، ومنها إلى حصن يقال له حصن ابن كرام ثم يصير إلى بلد يقال له متيجة تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام يقال لهم بنو محمد بن جعفر، وهو بلد واسع فيه عدة مدن وحصون، وهو بلد زرع وعمارة»¹⁶.

ما يلاحظ على نص اليعقوبي هو تحديده لإقليم متيجة ضمن الإمارة العلوية التي تأسست هناك في أواخر القرن الثاني للهجرة، وهي إمارة بني جعفر من أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهي فرع من الفروع الثلاث للإمارات العلوية التي نزلت المغرب الأوسط بعد تأسيس دولة الأدارسة (172-311 هـ/788-923 م).

ذلك أن ادريس بن عبد الله لما أسس دولته بالمغرب الأقصى توجه نحو المغرب الأوسط كي يفتح لدولته طريقا إلى المشرق، فزحف على تلمسان سنة 173 هـ فأطاعته، ولحق به أخوه سليمان، ولما هلك خلفه ابنه محمد، وكبر ابن عمه ادريس الأصغر، فاتصلت أيديهما، ونهض ادريس إلى تلمسان سنة 199 هـ وبلغ شلف وما وراءه إلى بلاد صنهاجة، ثم اصطالح مع ابن الأغلب وعينت الحدود بينهما بوادي شلف، وعقد على المغرب الأوسط لابن عمه محمد بن سليمان الذي ترك أبناءا اقتسموا مملكته¹⁷.

وكان ممن لحق بالمغرب أيضا داوود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن بني جعفر هذا رجال نزلوا متيجة وملكوها، كما لحق بهم أيضا من العلويين الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونزل مدينة هاز القريبة من المسيلة وكانت له من تلك الجهات مملكة، شملت سهل حمزة الفسيح، وسمي سهل حمزة بحمزة بن الحسن صاحب هاز لأنه الباني لها¹⁸.

وهو ما يورده البكري فيقول عن مدينة حمزة (البويرة حاليا): «وهناك مدينة تسمى حمزة، نزلها وبنّاها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن بن سليمان هو الذي دخل المغرب، وكان

له من البنين: حمزة هذا، وعبد الله، وإبراهيم، وأحمد، ومحمد والقاسم، وكلهم أعقب، وعقبهم هناك»¹⁹.

نستنتج من هذه النصوص أن الإمارات أو الممالك العلوية التي تأسست بالمغرب الأوسط هي مملكة هاز التي تقع إلى الشرق من مملكة متيجة، وأصحابها من بني الحسن بن سليمان، ومنها إلى مملكة بني جعفر في الوسط وهي مملكة متيجة، ثم مملكة أخرى يذكرها اليعقوبي إلى الغرب منها وهي مملكة بني محمد بن سليمان.

وفي هذا الصدد يقول اليعقوبي: «... ثم مدينة مدكرة فيها ولد محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ومدينة الخضراء، ويتصل بهذه مدن كثيرة وحصون وقرى ومزارع، يتغلب على هذا البلد ولد محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، كل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية وعددهم كثير حتى أن البلد يعرف بهم وينسب إليهم، وآخر المدن التي في أيديهم المدينة التي تقرب من ساحل البحر يقال لها سوق إبراهيم وهي المدينة المشهورة فيها رجل يقال له عيسى بن إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، ثم من هذه إلى تهرت»²⁰، والظاهر أن هذه الممالك قد اندثرت على إثر ظهور دعوة الشيعة بالمغرب، وتأسيس الدولة الفاطمية هناك، إذ لا نجد لهم أي ذكر في المصادر اللاحقة.

ومن جهة أخرى يبدو أن إقليم متيجة أصبح تابعا للدولة الحمادية (405-547 هـ / 1014-1153 م) على إثر تأسيسها على يد حماد بن بلكين الصنهاجي، حيث يصنفها الحموي ضمن الأقاليم التابعة لهذه الدولة فيقول: «بفتح أوله، وكسر ثانيه وتشديده ثم ياء مثناة من تحت ثم جيم: بلد في أواخر إفريقية من أعمال بني حماد، ...»²¹.

وبدوره يضع الحسن الوزان إقليم متيجة في مطلع القرن العاشر الهجري / 16 م ضمن الأقاليم التابعة لمملكة تلمسان حسب التقسيم الذي وضعه لبلاد المغرب، والتي يسميها بلاد البربر تقليدا للرومان ويحددها من تخوم مصر شرقا إلى المحيط الأطلنطي غربا، حيث قام بتقسيمها إلى أربعة ممالك: مملكة مراكش، مملكة فاس، مملكة تلمسان، ومملكة تونس، ثم إن مملكة تلمسان تنقسم إلى: الجبال، تنس، الجزائر حيث يضع متيجة ضمن إقليم الجزائر²².

ومن هنا نجد أن إقليم متيجة خلال العصر الوسيط، وباعتباره أحد أقاليم بلاد المغرب الأوسط، قد كان تابعا من الناحية السياسية لعدد من الإمارات والدول التي تأسست بالمنطقة خلال هذه الفترة، بدءا بالإمارات العلوية إلى الدولة الحمادية، فالدولة الزيانية مع أواخر العصر الوسيط.

3- الوضع الاقتصادي: تشير النصوص الجغرافية المدروسة إلى أن إقليم متيجة هو إقليم زراعي بالدرجة الأولى، وهذا في اعتقادي لاحتوائه على سهل متيجة الخصيب، وبفضل توفر مصادر المياه وتنوعها من أنهار وأودية وعيون.

3-1- الزراعة ومصادر المياه: غالبا ما تتحدث المصادر الجغرافية عن مصادر المياه ببلاد المغرب الأوسط من أنهار وأودية وعيون وينابيع ماء، حيث لم يخل أي وصف لمدينة أو قرية من الحديث عن مصدر الماء الموجود بها، وهو أمر لا يرتبط بالزراعة فقط بل يرتبط بالشرب أيضا، فكلما ذكر جغرافي أو رحالة مدينة من مدن هذه البلاد إلا وذكر منبع الماء الذي تعتمد عليه في حياتها.

أشارت معظم كتب الجغرافيا إلى مصدر المياه الذي يتم من خلاله سقي الأراضي الزراعية التابعة لسهل متيجة، وفي هذا الصدد يقول البكري عن مصدر المياه الرئيسي لمدينة قزرونة السابقة الذكر: «... مدينة على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين ...»²³.

ولعله نهر الشفة الذي أشار إليه الحسن الوزان أثناء تعدادده للأنهار بإفريقيا فيقول: «الشفة: نهر ليس بالطويل، ينبع من الأطلس ويسيل في سهل يدعى المتيجة مجاور لمدينة الجزائر، ثم يصب في البحر المتوسط قرب مدينة عتيقة تمندفوست ...»²⁴.

كما تشير معظم المصادر الجغرافية إلى تواجد مصادر متعددة للمياه بسهل متيجة سواء على شكل أودية أو عيون ماء، حيث يقول صاحب كتاب الاستبصار وينقل عنه الحميري: «وهو فحوص عظيم كثير الخصب والقرى والعمائر تشقه الأنهار ...»²⁵.

وعلى الرغم مما أشارت إليه كتب الجغرافيا من وفرة المياه وتنوع مصادرها بإقليم متيجة، لكن الملاحظ أن هذه المصادر قد بخلت علينا بتوضيح الكيفية التي من خلالها يتم استغلال هذه المياه، والطريقة المستخدمة لسقي الأراضي الزراعية، هل كانت عن طريق قنوات مغلقة أو سواقي مكشوفة ؟ بالإضافة إلى استغلال جريان الأودية والأنهار في

طحن الحبوب والكيفية التي تتم بها هذه العملية، واكتفت بالإشارة إلى وجود طواحين ماء على الأنهار التي تشق هذا الإقليم.

وبالتالي فإن الكتابات الجغرافية العربية اكتفت بتعداد مصادر المياه التي تستفيد منها الزراعة، وانتقلت مباشرة إلى تعداد المحاصيل الزراعية التي يشتهر بها إقليم متيجة. تدل المعلومات التي أوردتها كتب الجغرافيا على أن بلاد المغرب الأوسط عموما هي بلاد ذات إنتاج زراعي وافر، تتنوع فيها المحاصيل الزراعية من منطقة إلى أخرى، حتى أن كل مدينة من مدنه بالإضافة إلى اشتهارها بإنتاج مادة معينة، تقوم بإنتاج مواد زراعية مختلفة، ولعل إقليم متيجة لا يخرج عن هذا الإطار، فهو إضافة إلى أنه إقليم خصب كثير البساتين، تتنوع فيه المحاصيل إلا أنه اشتهر حسب ما أوضحته المصادر الجغرافية بإنتاج مادتي الكتان والقمح.

وهو ما يشير إليه البكري في قوله: «لها مزارع ومسارح، وهي أكثر تلك النواحي كتانا ومنها يحمل، وفيها عيون سائحة وطواحين ماء»²⁶.

كما ينفرد الحسن الوزان بإيراد محصول القمح ضمن المحاصيل الزراعية لإقليم متيجة، فيقول: «في الضواحي - يقصد ضواحي مدينة الجزائر - سهول جميلة جدا، لا سيما سهل متيجة، حيث ينبت القمح الجيد بكثرة»²⁷، وإن كانت كتب الجغرافيا السابقة له قد أشارت إلى وجود الأرحية وطواحين الماء بهذا الإقليم مثل المقدسي والبكري والحميري. وباعتبار إقليم متيجة من الأقاليم الزراعية بالمغرب الأوسط، فإن كثرة الخصب والبساتين التي تحيط بمدن هذا الإقليم، حسب النصوص الجغرافية، يجعلنا نعتقد بأن مدن متيجة وسهولها ستكون بها وفرة في الفواكه على أنواعها، ومحاصيل زراعية أخرى لم تذكرها هذه الكتابات، حيث اكتفت بالإشارة إلى كثرة البساتين بمتيجة دون توضيح لنوعية منتجاتها.

لكن على الرغم مما أوضحته كتب الجغرافيا من غنى هذا الإقليم من الناحية الزراعية إلا أنها تبخل علينا بإيراد أي معلومات تتعلق بالجانب الحرفي أو التجاري، ولذا فغالبا الظن أن الكثير من موارد هذا الإقليم قد استعملت كمادة أولية في العديد من الحرف.

فعلى سبيل المثال مادة الكتان التي يشتهر بإنتاجها إقليم متيجة هي مادة أولية في الصناعة النسيجية، إذ تستغل ألياف هذا النبات في صناعة أقمشة الكتان، ووفرة محصول الكتان بهذا الإقليم جعله من المواد الزراعية التي تحمل منه إلى بقية الأقاليم، وذلك بغرض تحويلها إلى منتجات حرفية.

2-3- الطرق التجارية: ما يمكن استنتاجه عن التجارة والطرق التجارية بهذه البلاد، وذلك بالرجوع إلى الكتابات الجغرافية، أن هذا الإقليم باعتباره جزءا من إقليم المغرب الأوسط يعد ممرا يصل ما بين افريقية والمغرب الأقصى، وفي نفس الوقت يصل المناطق الشرقية للمغرب الأوسط مثل قسنطينة وبجاية بالمناطق الغربية مثل الشلف وتلمسان، وهنا تعتبر كتب المسالك والممالك هي المعول عليها في هذا الجانب.

يشير ابن حوقل ولو بطريقة غير مباشرة إلى أن إقليم متيجة هو منطقة عبور إلى العديد من الأقاليم والبلدان، حيث قدم لنا هذا الكاتب أوصافا موسعة للطرق والمسالك التي كانت تربط بين بلاد المغرب، كما يحدد المراحل التي تربط بين المدن، ومن بين هذه الطرق يذكر الطريق من فاس إلى المسيلة²⁸، وهي الطريق التي يقع ضمنها مجموع المدن التابعة لإقليم متيجة.

يحدد البكري هو الآخر مجموعة من الطرق التي تربط مدن إقليم متيجة ببعضها البعض، وبما جاورها من البلدان، وهي: الطريق من قلعة أبي طويل إلى تنس²⁹، الطريق من أشير إلى جزائر بني مزغني³⁰، الطريق من وهران إلى القيروان³¹، الطريق من تنس إلى تهرت³²، الطريق من فاس إلى القيروان³³، بينما يتطرق الإدريسي كذلك إلى هذه الطرق والمسافات الفاصلة بينها، مثل الطريق من تنس إلى المسيلة³⁴، الطريق من تلمسان إلى المسيلة³⁵.

والملاحظ هنا أن مدن إقليم متيجة تكون قد شكلت مراحل في الطرق الرابطة بين أقاليم المغرب الأوسط وما جاوره من البلدان، شرقا وغربا، كما كانت عبارة عن ممر يصل المدن الساحلية وخاصة جزائر بني مزغني بمناطق الهضاب أو طريق الهضاب ومنه إلى الطريق الصحراوي.

وفي الأخير ما يمكن استنتاجه من خلال دراسة النصوص التي أوردتها كتب الجغرافيا فيما يتعلق بالوضع الاقتصادي لإقليم متيجة خلال العصر الوسيط، أن هذا

الإقليم يعد إقليما زراعيا من الدرجة الأولى، وذلك باعتماده على سهل متيجة الخصيب الذي ينتج عددا من المحاصيل الزراعية لعل أهمها الكتان والقمح، غير أن ما يوجد بها من معلومات حول الحرف التي اشتهر بها هذا الإقليم أو تجارته لا يفي بالحاجة، وهو ما يضطر الباحث إلى إحداث بعض الإسقاطات عن ما عرف به إقليم المغرب الأوسط عموما باعتبار متيجة تقع ضمن هذه البلاد وفي حدودها، وهو ما يجعل بعض الأحكام التي يمكن إطلاقها في بعض الجوانب التاريخية لهذا الإقليم لا تكون مطلقة أو قطعية، ويمكن التراجع عنها في ظل اكتشاف معطيات أو نصوص جديدة.

4- الحياة العلمية: في هذا الجانب تبخل علينا المصادر الجغرافية بأية تفاصيل يمكن استغلالها في كتابة تاريخ هذا الإقليم خلال العصر الوسيط، إلا أن صاحب معجم البلدان، ياقوت الحموي ينفرد بإيراد معلومة في غاية الأهمية حول شخصية أو علم من أعلام منطقة متيجة، وهو أبو محمد بن عيسى المتيجي، حيث يقول: « ينسب إليها أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن عيسى المتيجي، سمع أبا الفضل عبد الحميد بن الحسين بن يوسف بن دليل الخطي وعبيدة، سمع منه ابن نقطة بالإسكندرية »³⁶، والظاهر أن هذا العالم قد ارتحل إلى المشرق، وتصدى للتدريس حتى سُمع منه بالإسكندرية، لكن الحموي لم يوضح لنا طبيعة العلوم التي درسها أو درّسها.

وبالتالي تعد كتب الجغرافيا العربية فقيرة من هذه الناحية على العموم، ولعل هذا راجع إلى اهتمام أصحابها بدراسة الأقاليم من الناحية الطبيعية والجغرافية والاقتصادية. تحليل النتائج: اختلفت الكتابات الجغرافية حول تسمية إقليم متيجة، ما بين البلد والذي قصد به أصحابه مجموع العمائر أو المدن التي يضمها الإقليم، ثم السهل أو الفحص بمعنى الأراضي الزراعية التابعة له، أو المدينة التي سماها البكري بقزرونة.

ارتبط موقع إقليم متيجة في الكتابات الجغرافية بمدينة جزائر بني مزغنى، وهو الأمر الذي يطرح إشكالية يجب البحث والتفصيل فيها، تتعلق بهذه المدينة هل هي تابعة لهذا الإقليم أم أنه كان مرتبطا بها بحكم أنها تشكل منفذا له على البحر.

يصعب إعطاء حكم بتبعية إقليم متيجة خلال العصر الوسيط لأفريقية أم المغرب الأوسط، حيث أشارت المصادر الجغرافية إلى وقوعه ضمن المدن التابعة لأفريقية، أو أنه يشكل آخر حدودها مع المغرب، إلا أن مسألة ضبط الحدود بالنسبة لبلاد المغرب الأوسط

في تلك الفترة، سواء ما تعلق بحدوده مع افريقية أو المغرب الأقصى، هي مسألة صعبة وشائكة، حتى أن كتب الجغرافيا المعول عليها في هذا الجانب باعتبار أن المواقع الجغرافية تدخل في صلب اهتمامات أصحابها، قد اختلفت فيما بينها في هذه المسألة.

أوردت الكتابات الجغرافية العديد من النصوص التاريخية التي يمكن من خلالها القول بأن إقليم متيجة كغيره من أقاليم بلاد المغرب، كان تابعا في الفترة الوسيطة إلى جملة الدول والإمارات التي تأسست بهذه البلاد، وما توفر من معطيات به إشارات واضحة إلى تبعية الإقليم للإمارات العلوية الناشئة في المنطقة قبل ظهور الفاطميين، إضافة إلى الدولة الحمادية المستقلة بالمغرب الأوسط والأقاليم التابعة له ابتداء من القرن الخامس الهجري/ 11 م، ليصبح مع نهاية العصر الوسيط تابعا لدولة بني زيان عموما وإقليم الجزائر على وجه الخصوص.

تتفق المصادر الجغرافية المدروسة خلال التعريف بإقليم متيجة من الناحية الإقتصادية على أن هذه المنطقة هي منطقة فلاحية بامتياز، وذلك بفضل مجموعة من العوامل ساهمت إلى حد كبير في هذه السمة التي عرف بها الإقليم، ولعل أهمها توفر مصادر المياه وخصوبة التربة وشساعة الأراضي الفلاحية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن النصوص الجغرافية فيما تعلق بهذا الجانب وارتباطه بالجانب الطبيعي قد أخذت الحصة الأكبر في الأوصاف التي قدمها الجغرافيون العرب والمسلمين لإقليم متيجة.

وهنا يجب التأكيد على جزئية على جانب كبير من الأهمية، فيما تعلق بطبيعة النصوص الجغرافية التي خصصها أصحابها لوصف إقليم متيجة خلال العصر الوسيط، ونوع المادة التاريخية الموجودة بها، حيث بعد جمع هذه النصوص وتصنيفها إلى مجموعات، يمكن وضع أربعة أنواع رئيسية لها:

1/ نصوص جغرافية تعالج الجانب الجغرافي والطبيعي.

2/ المادة التاريخية التي تتحدث عن الجانب السياسي من حياة هذا الإقليم.

3/ النصوص والمعطيات المرتبطة بالجانب الاقتصادي على وجه العموم.

4/ نصوص تتعلق بالحياة العلمية أو الثقافية (راجع الملحق رقم 01).

من خلال هذا التصنيف، يمكن القول بأن النصوص الجغرافية تعالج بشكل أساسي هذه الأنواع الأربعة الرئيسية من المواضيع، غير أن حجم المادة التاريخية الموجودة

في كتب الجغرافيا تتفاوت من جانب إلى آخر ، ومن مصدر لآخر، حيث يظهر جليا أن الأوصاف الجغرافية والطبيعية لإقليم متيجة هي التي أخذت الحجم الأكبر والاهتمام الواسع لأصحاب هذه الكتابات، وهو مرتبط بطبيعة الحال باهتمامات هذه النوعية من المصادر، التي تعالج الجانب الطبيعي والجغرافي بشيء من التفصيل، وبالتالي نجد أن النسبة المئوية الأكبر هي التي استحوذ عليها الوصف الجغرافي للإقليم: الموقع، المساحة، أنواع التضاريس، أوصاف لها ارتباط بالجانب الطبيعي للإقليم ... وهو ما تمت الإشارة إليه في بداية البحث.

هذا إضافة إلى اهتمام أصحاب المصادر الجغرافية الواضع بالجانب الاقتصادي، وهو ما جعل النسبة المئوية الأكبر بعد الأوصاف الجغرافية، تكون تلك المخصصة للأوضاع الاقتصادية عموما، وللزراعة وموارد المياه على وجه الخصوص، وهنا تجدر الإشارة كذلك، إلى الفرق الواضح بين النصوص المخصصة للجانب الزراعي والمنتجات الفلاحية، والجانب الحرفي والتجاري لإقليم متيجة، حيث تنعدم النصوص المتعلقة بالحرف والصنائع بهذا الإقليم.

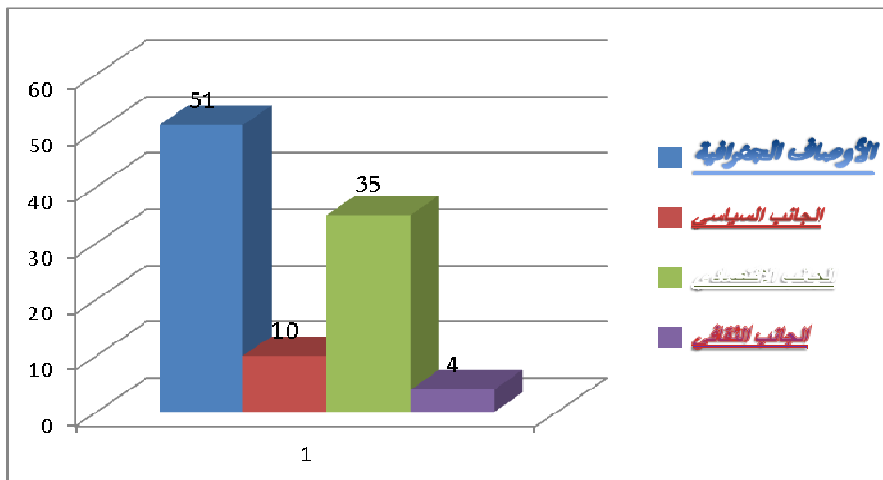
وعلى الرغم من الإشارات الواردة في كتب الجغرافيا فيما تعلق بالإنتاج الفلاحي لفحص متيجة، والتي حصرتها في مادتي القمح والكتان على وجه الخصوص، إلا أننا لا نستطيع من خلال هذه الكتابات الإجابة على التساؤلات المطروحة حول الإنتاج الحرفي، وما تعلق بتسويق المنتجات سواء الفلاحية أو الحرفية، فما يمكن أن نستشفه من معلومات حول الوضع التجاري للإقليم لا يتعدى أن يكون إحصاء لأهم الطرق والمسالك التي ربطت المغرب الأوسط بكل من افريقية والمغرب الأقصى من جهة، وربطت مدن بلاد المغرب الأوسط نفسها من جهة ثانية، وذلك بواسطة العبور بإقليم متيجة ومختلف المدن التابعة له، حيث تعد كتب المسالك والممالك هي الوحيدة من ضمن كتب الجغرافيا التي يمكن من خلالها استنباط هذه المعلومات.

من جهة ثانية يمكن القول بأن النسب الأدنى للنصوص الجغرافية هي تلك المخصصة لدراسة الأوضاع السياسية والثقافية للإقليم، وهو يفسر بأن هذه النوعية من المواضيع هي خارج اهتمامات الجغرافيين، لكن على الرغم من ذلك أسعفتنا كتب الجغرافيا بنصوص مرتبطة بهذه الجوانب تعد ذات أهمية خاصة إذ لا نجد معطياتها ببقية المصادر.

الخاتمة: وفي الأخير فإن النتائج المتوصل إليها بعد استخراج ودراسة النصوص التي أفردتها كتب الجغرافيا لإقليم متيجة خلال العصر الوسيط، وذلك ابتداء من النصف الثاني للقرن الثالث وإلى غاية منتصف القرن العاشر الهجريين، نجد أن النصوص الواردة في المصادر الجغرافية، إذا ما قارناها ببقية المصادر التاريخية، هي نصوص متنوعة وعلى جانب كبير من الأهمية يمكن من خلالها الإجابة عن بعض التساؤلات التي يطرحها الباحث عن التطور التاريخي والحضاري الذي شهده هذا الإقليم في الفترة الوسيطة.

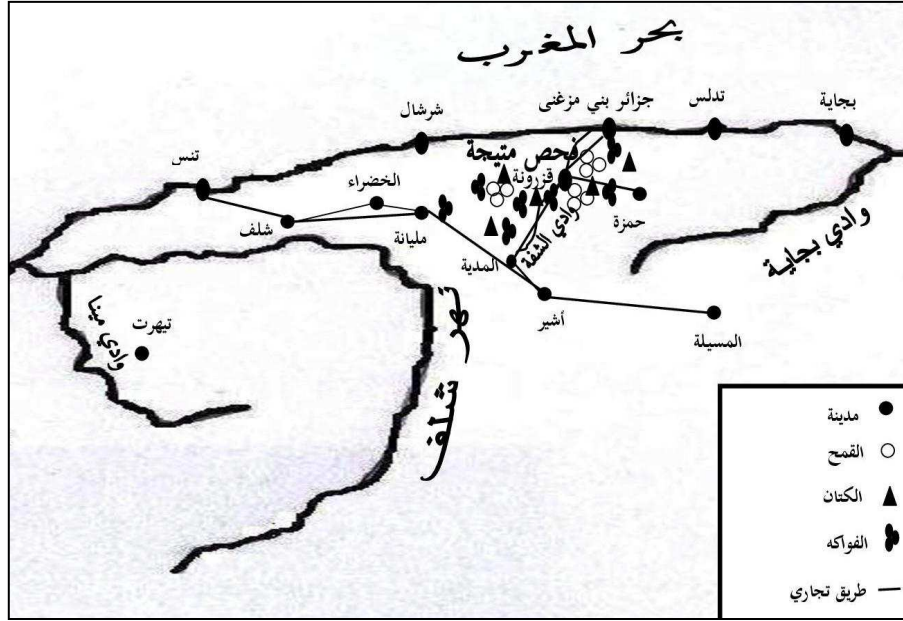
ثم إن المعطيات التاريخية التي قدمتها الكتابات الجغرافية تمس مباشرة الجوانب الطبيعية والجغرافية والاقتصادية والعمرانية وحتى الثقافية لبلاد متيجة، فهي تعالج هذه المواضيع بشكل متفاوت، من ناحية لأخرى، إلا أن أهميتها تكمن في أنها تنفرد بإعطاء معلومات لا نجدها في بقية المصادر.

الملاحق:



ملحق رقم 01: أعمدة بيانية تمثل النسب المئوية لمختلف صور الحياة

التي قدمتها نصوص الكتابات الجغرافية لإقليم متيجة



ملحق رقم 02: خريطة تمثل الجانب الاقتصادي لإقليم متيجة من خلال الكتابات الجغرافية

الهوامش:

- 1- الفحص: شدة الطلب خلال كل شيء، فحص عنه فحصا: بحث، ونقول: فحصت عن فلان وفحصت عن أمره لأعلم كنهه حاله، والدجاجة تفحص برجلها وجناحها في التراب تتخذ لنفسها أفحوصة تبيض أو تجثم فيها، وفحص المطر التراب يفحصه: قلبه ونعى بعضه عن بعض فجعله كالأفحوص، وفي حديث كعب: إن الله بارك في الشام وخص بالتقديس من فحص الأردن إلى رفح، الأردن: النهر المعروف تحت طبرية، وفحصه ما بسط منه وكشف من نواحيه، والفحص: ما استوى من الأرض، والجمع فحوص، ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم- لسان العرب- دار صادر- بيروت- د.ت- مج 7- ص 63-64.
- 2- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح- البلدان- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1- 2002- ص191.
- 3- مؤلف مجهول- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار- وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب- تعليق سعد زغلول عبد الحميد- دار النشر المغربية- الدار البيضاء- 1985- ص132.
- 4- الوزان الحسن بن محمد- وصف إفريقيا- تحقيق محمد حجي- محمد الأخضر- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط2- 02- 1983- ج2- ص37.
- 5- مدينة في جبال البربر بالمغرب مقابل بجاية في البر، كان أول من عمرها زيري بن مناد الصنهاجي، وكان زيري لما عظم جمعه وطالبته نفسه بالإمارة، خرج يرتاد له موضعا ينزله فرأى أشير، وهو موضع خال وليس به أحد مع كثرة عيونه وسعة فضائه وحسن منظره، وشرع في إنشاء مدينة أشير سنة 324 هـ، قصد بها أهل تلك النواحي طلبا للأمن والسلامة فصارت مدينة

- مشهورة، وتملكها بعده بنو حماد، ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله- معجم البلدان- دار صادر- بيروت- 1977- مج 1- ص ص 202-203.
- 6- البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد- المسالك والممالك- تحقيق جمال طلبة- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط01- 2003- ج2- ص 247.
- 7- المرج: الفضاء، وقيل: المرج أرض ذات كلأ ترعى فيها الدواب، والجمع: مروج، وفي الصحاح: المرج الموضع الذي ترعى فيه الدواب، ومرج الدابة يمرجها إذا أرسلها ترعى في المرج، وأمرجها: تركها تذهب حيث شاءت، وقال القتيبي: مرج دابته خلاها، وأمرجها رعاها، وإبل مرج إذا كانت لا راعي لها وهي ترعى، وفي الحديث وذكر خيل المرباط، فقال: طول لها في مرج: المرج: الأرض الواسعة ذات نبات كثير تمرج فيها الدواب أي تخلى تسرح مختلطة حيث شاءت، ابن منظور- المصدر السابق- مج 2- ص 346.
- 8- المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد- كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم- دار صادر- بيروت- ط02- دت- ص 228.
- 9- الاستبصار- ص 132.
- 10- الحميري محمد بن عبد المنعم- الروض المعطار في خبر الأقطار- تحقيق إحسان عباس- مكتبة لبنان- بيروت- ط02- 1984- ص 163.
- 11- الوزان- المصدر السابق- ص 37.
- 12- المقدسي- المصدر السابق- ص 217.
- 13- ياقوت الحموي- المصدر السابق- مج 5- ص 53.
- 14- الاستبصار- ص 132 - وينقل عنه الحميري- المصدر السابق- ص 163.
- 15- الوزان- المصدر السابق- ص 37. --- 16- اليعقوبي- المصدر السابق- ص 191.
- 17- مبارك بن محمد المليي- تاريخ الجزائر في القديم والحديث- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- دت- ج2- ص ص 101-103.
- 18- نفس المرجع- ص ص 103-104.
- 19- البكري- المصدر السابق- ص 246.
- 20- اليعقوبي- المصدر السابق- ص 192.
- 21- ياقوت الحموي- المصدر السابق- مج 5- ص 53.
- 22- الوزان- المصدر السابق- ج 2- ص ص 15-16.
- 23- البكري- المصدر السابق- ص 247. --- 24- الوزان- المصدر السابق- ص 251 - وانظر الحميري- المصدر السابق- ص 523.
- 25- الاستبصار- ص 132- الحميري- المصدر السابق- ص 163.
- 26- البكري- المصدر السابق- ص 247- الحميري- نفس المصدر- ص 523.
- 27- الوزان- المصدر السابق- ص 37.
- 28- لمزيد من الاطلاع على هذه الشبكة من الطرق انظر ابن حوقل- المصدر السابق- ص ص 85-90.
- 29- البكري- المصدر السابق- ص ص 239-241. --- 30- نفس المصدر- ص 247. --- 31- نفسه- ص ص 253-258.
- 32- نفسه- ص 258. --- 33- نفسه- ص ص 326-330.
- 34- الادريسي أبو عبد الله الشريف- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس- مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق- تحقيق اسماعيل العربي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1983 - ص 155.
- 35- نفس المصدر- ص 157. --- 36- ياقوت الحموي- المصدر السابق- مج 5- ص 53.